

## الفصل الخامس

### في أعقاب السيل الجارف للحروب الصليبية

بلدوين الزائف واستاذ هنغاريا :

استمر مشروع المغامرة الصليبية ( ص ٨٩ ) العملاقة طويلا ليقدم خلفية وأرضية للحركات المسانحة الشعبية وفي الحملات الصليبية الرسمية تكتلت السياسة العلمانية بدرجة أكبر ، وبالفعل في الحملة الثالثة التي أخذت طريقها في ١١٨٩ ، وجدت الاهتمامات السياسية للدول العلمانية - الامبراطورية وفرنسا وانكلترا - تعبيرا مفتوحا ، وانتهت الحملة الصليبية الرابعة ، في السنوات الافتتاحية. للقرن الثالث عشر ، كحرب علمانية صرفة شنت لأغراض سياسية محضة ، فهي حملة امتزج فيها الطموح التجاري للبندقية بالطموح الأرضية لامراء فرنسا والمانية لتؤدي إلى الاستيلاء على القسطنطينية ، وغزو وتقسيم الامبراطورية الشرقية ، وفي مثل هذه الحملة لم يعد هناك مجال للدهماء ، فهم لم يكونوا مرغوب فيهم وهم لم يكونوا مهتمين ، ولكنهم لم يهجروا المثل القديمة للتحرر والدفاع عن المدينة المقدسة ، ولا الآمال المتعلقة بالأخريات ، بل على العكس ، الآن وقد استسلم البارونات تماما للدنيويات ، كان الفقراء أكثر اقتناعا من قبل بأنهم ، وأنهم وحدهم كانوا الأدوات الحقيقية للإرادة الالهية ، والقيمين الحقيقيين على المهمة الأخروية .

وفي ١١٩٨ يبدو أنه قد ظهر للمرة الأولى متنبئ دعا الفقراء إلى حملة صليبية تكون لهم ، ولهم وحدهم ، وكان اسمه فسوك أوف نويلي .

وكان زاهدا نموذجيا ، صانع معجزات وكانت سمعته الشعبية الكبيرة مدينة بالكثير لقدرة المفترضة على شفاء العميان والخرسان ، وماتصوره يبدو أنه كان لا يقل عن جيش مستقل يكون ملفتا بشدة للأنظار بفقره كما قيل كان جيش ملك الطفور ، وهاكت الحشود التي انطلقت متحركة مع فولك في بؤس على شواطئ إسبانيا ولكن في خلال بضع سنوات أعقبتها حملات الأطفال الصليبية ، ففي ١٢١٢ خرجت جيوش الأطفال لاستعادة المدينة المقدسة ، وتكونت من جيش من فرديسا ، وآخر أكبر بكثير من وادي الراين وترأس كل منهما شاب اعتقد في نفسه أنه قد اختير من قبل الرب ، وكان ينظر إليه من قبل أتباعه على أنه قديس صانع معجزات ، ولم يكن (ص ٩٠) لهذه الألوف من الأطفال أن تكبح لا بالاستعطاف ولا بالقوة ، وكان إيمانهم عميقا لدرجة أنهم كانوا قانعين بأن البحر المتوسط سوف يجف أمامهم كما فعل البحر الأحمر أمام الاسرائيليين القدماء ، وانتهت هذه الحملات الصليبية أيضا بشكل مفرح ، مع كل الأطفال تقريبا إما غرقى في البحر أو جانعين حتى الموت أو بيعوا كعبيد في افريقيا ، ومع ذلك فإن هذه الهجرة الكبيرة دشنت تقليدا ، فلاكثر من قرن كانت حملات صليبية مستقلة من الفقراء تتابع الوقوع من وقت لآخر مع نتائج تعد مفاجئة لهم وحدهم ، وفي هذه الأثناء قامت في فلاندرز وهنوت الحملة الصليبية الرابعة ، وبشكل غير مباشر وبعد فاصل جيل ، على حركة استجابت بقوة إلى الآمال المسائحية الخلاصية للجماهير ، مع أن أصلها رسا في مؤامرة سياسية ، وعندما استولى الصليبيون على القسطنطينية في ١٢٠٤ نصبوا بلدين التاسع كونت فلاندرز إمبراطورا للقسطنطينية وسيدا أعلى لكل الأمراء من الغرب الذين كانوا الآن يكسبون أقطاعات لأنفسهم من أراضي الامبراطورية الشرقية ، وكانت دولة بلدين على أي حال ضعيفة جدا ، وخلال سنة أسر الامبراطور من قبل البلغار وأعدم ، وفي الوطن أصبحت ابنة بلدين جوانا كونتية ، ولكن بما أنها لم تتمكن بفعالية من معارضة السياسي القوي المصمم فيليب أوغسطس الفرنسي فإن أراضيها في فلاندرز وهنوت وقعت تحت السيادة الفرنسية ، ولم

تكن هذه السيادة موضع ترحيب ، وعند موت فيليب في ١٢٢٣ كان نقص القيادة فقط هو الذي حال دون قيام ثورة ، وعند هذه النقطة عاد الخيال القديم للامبراطور النائم إلى الظهور في صورة متكيفة مع العصر ، وبفضل تاريخه الاستثنائي أصبح بلدوين في الخيال الشعبي شخصية ذات أبعاد خارقة للبشر ، مخلوقا خرافيا نصف شيطان ونصف ملاك وتدرجيا تطورت أسطورة كاملة ، وقد أشيع في الخارج أن الكونت كان بعد كل شيء ليس بميت ، ولكنه وقد أثم بدرجة كبيرة ، كان ما يزال يكفر ويقدم التوبة التي فرضها عليه البابا ، ولسنوات عدة كان يعيش في غموض كشحاذا هانم وناسك ، ولكن تكفيره أن أن يستكمل وسيعود قريبا في تالق ليحرر أرضه وشعبه ، وفي عام ١٢٢٤ مر غريب عبر البلاد حول تورناي يوزع الهبات ويعلن أن بلدوين على وشك أن يعود ، وبعد بضعة شهور ظهر بين تورناي وفالانسين ناسك شحاذا في مظهر متنبىء نمونجي ذي قامة مهيبة ، وشعر طويل ولحية منسدلة ، وقد تم تعقبه إلى غابة قريبة حيث تبين أنه يعيش في كوخ مصنوع من الأغصان ، وبدأت الإشاعة على الفور في الانتشار على أنه لم يكن سوى الكونت المفقود ، ولم يحسم أبدا ما إذا كان الناسك هو الذي أوحى بهذا الدور لنفسه أم أنه ببساطة قد قبله عندما اقتترح عليه ( ص ٩١ ) وما هو مؤكد أنه وقد أصر على أن يمضي عاما آخر في الغابة لاستكمال كفارته ، استفاد من الوقت لتأمين مستشاريه وتنظيم بلاط سري ، وكان النبلاء يزورونه ، واعتقد ابن أخ بلدوين بأنه عرف عمه حقا فيه ، وادعى قادة المقاومة الفلمنكية لفرنسا على الأقل بأنهم قد عرفوه حتى يمكنهم تبنيه كرجلهم ، وبتقويته بهذا الدعم أعلن الناسك أنه كان بلدوين حقا ، وأنه عاد إلى الوطن من الشرق بعد معاناة مروعة ، وتدفقت حشود كبيرة من فالانسين لرؤيته ، وفي نيسان ١٢٢٥ أعادته إلى المدينة على ظهر حصان وقد ارتدى رداء قرمزيا ، بين مشاهد الابتهاج العام .

وبقبوله من قبل معظم النبلاء والمدن في فلاندرز وهينوت ، ادعى الناسك قوى مهيمنة ، ولكن عندما دعت الكونتية جوانا للحضور إلى

بلاطها للاعتراف والناداة به رفض الذهب ، وبدلا من ذلك بدأ يعد  
العدة لترسيخ مركزه بالقوة ، وفي حين أن جوانا من جانبها ، وقد  
استقبلت صليبيين ممن عرفوا والدها شجبت الناسك على أنه  
دجال ، كانت المدن في مزاج مضطرب ليس فقط لأنهم وجدوا الفرصة  
لتوسيع حرياتهم بالتخلص من سيادة ملك فرنسا، بل لأنهم في الواقع  
اعتقدوا أن سيدهم الحقيقي قد عاد إليهم ، وقد هبوا الآن بالسلاح  
وخلعوا جوانا التي نجت بصعوبة من الوقوع بالأسر ، وتفجرت  
الحرب الأهلية وكان الناسك على رأس قوة كبيرة ، عاثت فسادا في  
هينوت من أقصاها لأقصاها وسلبت ودمرت كل مراكز المقاومة ،  
وأشعلت النار في الكنائس وهي محتشدة بالناس ، ولم تكن هذه  
حربا عادية ولكن ( كما وصفها مؤرخ محدد ) حربا دينية  
لاستعراض القوة ، حربا صليبية ضد الكونتية جوانا ، التي  
أصبحت الآن مكروهة للمجرد كونها حليفا لفرنسا ، بل على أنها  
غير متمسكة بالواجب ، وابنة عاصية متمرده ، ولم يكن قائد الحملة  
الصليبية قائدا عاديا بل أميرا مقدسا ، كائنا مبعلا حتى أن الناس  
كانوا يقبلون النذب التي كانت شاهدا على عذاب عظيم طويل ،  
ويقاتلون من أجل شعرة من رأسه أو قصاصة من ثيابه كما كانوا  
يشربون ماء استحمامه ، كما شرب ماء استحمام تانزيم في جيل  
سالف .

وتوج الناسك في أيار ، وربما كان ذلك في فالنسين ، ككونت  
للفلاندرز وهينوت وامبراطورا للقسطنطينية وسالونيك ، في احتفال  
اجتمعت فيه أبهة المراسيم الغربية والشرقية وأوجد الملك الجديد  
على الفور الفرسان ، ووزع الاقطاعيات والرتب الكذسية والهبات  
وخرج في زيارة رسمية إلى مدنه ، وهو يرتدي الثياب الأرجوانية  
الخاصة بالسلطة ، محمولا على محفة ، أو ممتطيا حصانا أصيلا ،  
ومحاطا بأعلام مقاطعاته في الشرق والغرب ويتقدمه الصليب الذي  
كان يتقدم تقليديا خلفاء قسطنطين ، ( ص ١٢ ) وكان مايزال  
باللحية الطويلة نفسها لناسك مقدس ، ويحمل الصولجان الأبيض  
صولجان الخير بدلا من صولجان السلطة المعدني ، ولا بد أنه بدأ

حقا كأمبراطور مسيحي ، جاء أخيرا لتحقيق نبوءات السبيليين .

وكان الحماس الشعبي غامرا ، وجاءت مواكب شعبية طويلة من أبناء المدن والفلاحين من كل حذب وصوب يتقدمها رعاة الأديرة والرهبان لاستقباله ، وقدمت له مدن مثل ليل وغنت وبرغس ليس مفاتيحها فقط ، بل المال أيضا ، وهي تحمد الرب على العودة المعجزة التي بنت كميلاد جديد ، وكان الناس يركعون على ركبهم عندما يمر بهم ، وكما قال مراقب معاصر معلقا بطريقة ذات معنى : « لو أن الله نزل إلى الأرض ، لما استقبل أفضل من ذلك » ، ومع ذلك فإن الحماس لم يكن بالقدر نفسه بين كل الطبقات ، وفي حين كان الأغنياء يميلون للنظر بريية إلى الملك الجديد ، كان الفقراء مقتنعين تماما أنه كان حقا بلدوين الذي ظهر بينهم ، ومع أن المؤرخين المحدثين مالوا إلى تجاهل الواقعة ، فإن المصادر الأصلية تظهر بوضوح كاف أن الفقراء المدنيين ولاسيما العمال في صناعة النسيج الكبيرة هم الذين تبنوا الرجل كمسيح لهم ، وطبقا للمراقب نفسه : « كان فقراء الناس من النساء والقصاصيين من خالصائه ، والأفضل حالا ، والأغنياء كانت حصتهم قليلة في كل مكان وقال الفقراء إنهم سيحصلون على الذهب والفضة ... وسموه الامبراطور » .

ويبدو التعليق هاما عندما يدرك المرء أنه في تلك السنة نفسها « ١٢٢٥ » كانت فلاندرز وهنوت في ألم مبرح من مجاعة مروعة ، لم يشاهد مثلها منذ أجيال .

ومن الناحية السياسية أصبح الناسك قوة سياسية يحسب حسابها لأنه لم يوطد فقط سلطته في الوطن بل كان يكسب الاعتراف في الخارج ، وأرسل الأمراء من الجوار السفراء إلى بلاطه وعرض عليه هنري الثالث ملك انكلترا معاهدة تحالف ، موجهة بالطبع ضد فرنسا .

واجاب الملك الفرنسي لويس الثامن على كل ذلك بالتوصل إلى

معاهدة تحالف مع الكونتية جوانا ، والمح في الوقت نفسه بأنه هو نفسه قد يعترف بادعاءات الحاكم الجديد إذا زاره الأخير شخصيا ، وقبل الناسك الدعوة وسلك طريقه في حالة فحمة إلى البلاط الفرنسي في بيرون وتحول هذا إلى خطأ مميت ، ففي المحادثة مع لويس أثبت الناسك عجزه عن تذكر الأشياء التي كان بلدوين الحقيقي يعرفها بالتأكيد ، وسرعان ما عرف أنه بـرتاندانوف رأي من بيرغاندي ، وهو قد اشترك في الحملة الصليبية الرابعة كشاعر ومغني في حاشية سيده ، وأصبح في مرحلة تالية من حياته سيء السمعة كمشعوز دجال وكمقلد للشخصيات أو منتحلها ( ص ٩٣ ) وبتعرية الدجال فقد أعصابه وهرب في إحدى الليالي من البلاط ، بينما تشمت حاشيته التي كانت تضم مائة فارس كانوا حتى ذلك اليوم الموالين المخلصين له وذلك بعد تحرره من الوهم ، وكان ما يزال بإمكانه النجاة بحياته لأن لويس منح مهلة ثلاثة أيام لمغادرة الأراضي الفرنسية ، ولكنه بدلا من أن يستفيد من هذه الضمانة سلك طريقة إلى مقر قيادة في فالنسيين ، وأدى وصوله إلى وقوع اضطرابات في المدينة ، وحاول المواطنون الأغنياء اعتقاله ولكن الغضب الشعبي منعهم من ذلك . وبدلا من ذلك تم احتجاج عدد من الأغنياء أنفسهم لقاء فدية ، في حين هرب الباقي من المدينة وتخلص الشعب من الإدارة القديمة وأعلنوا عن تشكيل لجنة ثورية بين مشاهد الابتهاج المحموم ، وأسكنوا مسيحيهم في حصن المدينة وبدأوا بتقوية أسوار المدينة ، وكانت فالنسيين في الواقع على وشك أن تحاصر من قبل الفرنسيين ، وعندها فقد بلدوين الزائف مرة أخرى أعصابه فهرب وأخذ معه قدرا كبيرا من المال ، وعندما عرف قبض عليه جرى عرضه بطريقة مخزية عبر المدن التي شهدت انتصاره ، وفي تشرين أول أعدم في مقر السوق في ليل بعد نحو سبعة شهور من إعلان نفسه كونتا وامبراطورا .

ووصف برتراند أوف رأي نفسه قبل إعدامه بشيطان فقير ضلله النصيح بالشر من الفرسمان والبورجوازيين . ولكن شيئا لم يكن بإمكانه كسر القبضة التي أحكمها على الخيال الشعبي ، وكان على



و في تلك السنوات ذاتها كان هناك متعصبون في باريس راوا في الابن البكر ملك فرنسا ، الذي أصبح فيما بعد الملك لويس الثامن مسيحا سيحكم الى الأبد تحت شريعة الروح القدس عالما موحدا متطهرا ، وفي حالة اذا ماميز لويس الثامن نفسه بدهائه وتصميمه بدلا من أي مواهب روحية ، فان خليفته كان في الواقع قديسا دنيويا ، فقد وضع لويس التاسع او القديس لويس معيارا جديدا للملوك في النصرانية ، فإضافة الى زهده الصارم واهتمامه الحقيقي الذي امتد الى أكثر رعاياه تواضعا ، وكسب له مهابة استثنائية ، ان المرء ليتساءل اي أحداث خارقة كانت متوقعة منه ، عندما خرجت هذه الشخصية المشعة في الحملة الصليبية السابعة ؟ وبالتأكيد عندما هزم في المنصورة في ١٢٥٠ ووقع في الأسر ، الذي استمر أربع سنوات كانت هذه ضربة مروعة لكل النصرانية وكأن التحرر من الوهم كبيرا لدرجة أن العديد من فرنسا بدأوا في توبيخ الأكليروس ، قناصلين : بعد كل شي بدا أن محمد ( ص ) أقوى من المسيح .

واستجابة لهذه الكارثة برزت للوجود اول الحركات النوضوية المعروفة باسم صليبية الرعاة، وفي عيد فصح ١٢٥١ بدأ ثلاث رجال بالوعظ بالحملة الصليبية في بيكاردي وخلال بضعة أيام امتدت دعوتهم الى برابانت وفلاندرز ، وهينوت أي الأراضي الواقعة وراء حدود المملكة الفرنسية ، وكانت الحشود متعطشة للمسيح بالدرجة نفسها كما كانت في أيام برتر اند أوف راي قبل ذلك بجيل ، وكان أحد هؤلاء الرجال راهبا مرتدا يدعى يعقوب يقال انه جاء من هنغاريا ، وكان يعرف باسم « استاذ هنغاريا » وكان زاهدا نحيفا شاحبا ملتحميا في نحو الستين من العمر ، له تأثير قوي وقادرا على الكلام بطلاقة كبيرة باللغة الفرنسية ، والألمانية واللاتينية ، وادعى يعقوب ان مريم العذراء قد ظهرت له وهي مجاطة بجيش من الملائكة وأعطته رسالة ، كان يحملها دائما في يده مثلما قيل عن بطرس الناسك انه كان يحمل وثيقة مماثلة ، ونقلنا عن يعقوب كانت هذه الرسالة ( ص ٩٥ ) تدعو كل الرعاة لمساعدة

الملك لويس على تحرير الضريح المقدس ، وادعى ان الرب كان غير مسرور بالزهو والتباهي لدى الفرسان الفرنسيين ، وانه اختار الهمل من العامة لتولي عملهم ، فالرعاة اعلنت الانباء السارة بولادة المسيح للمرة الاولى ، ومن خلال الرعاة عرف ان الرب على وشك اظهار قوته وبهائه .

وهجر رعاة الغنم والأبقار من الشباب والصبية والفتيان على السواء قطعانهم ، ودون استئذان من أهاليهم وتجمعوا تحت الاعلام الغربية التي رسمت عليها الزيارة المعجزة للعرعاء ، وقبل مضي زمن طويل انضم اليهم اللصوص ، و العاهرات والخارجون على القانون والرهبان المرتدون ، والقتلة وقدمت هذه العناصر القادة ، ولبس كثير من هؤلاء القادمين الجسد ايضا زي الرعاة وأصبحوا جميعا يعرفون باسم الرعاة وسرعان ماكان هناك جيش -مع أن التقدير المعاصر بنحو ستين الفا يجب الا يؤخذ بجدية - لابد انه كان بالتأكيد يعد ببعض الألف.

وكان مقسما الى خمسين سرية ، كانت تزحف منفصلة وهي مسلحة بالمذاري ، والبلط والخناجر والفؤوس المرفوعة عاليا ، عندما يدخلون المدن والقرى من أجل ارمباب السلطات ، وعندما كانوا يقعون في عجز من المؤن ، كانوا يأخذون ما يحتاجون اليه بالقوة ، ولكن الكثير منها كان يقدم طواعية حيث - كما يظهر من كثير من الروايات المختلفة - كان الناس يبجلون الرعاة كرجال مقدسين .

وسرعان ما أصبح الرعاة يتصرفون بالضبط مثل الجماعات التي تبعت تانزليم ، ويوددي توال ، وأخذ على يعقوب بالوعظ ضد رجال اللاهوت ، وهو محاط بحرس مسلح وبدأ يهاجم الرهبان الذين يعيشون على الصدقات كمنافقين ومتشربين ، والرهبان البندكتيين للأرض والتملك والبريموندستراتيين على انهم مفرون

وشرهون ، والقوانين النظامية على أنها نصف دنيونة وتقطع الصيام وكانت هجمات على مجلس الكرادلة لاتعرف الحدود ، وعلم اتباعه النظر الى الاسرار المقدسة بازدراء ، وأن يروا في اجتماعاتهم الخاصة التجسيد الوحيد للحقيقة ، ولذفسه ادعى انه لايمكن فقط ان يرى الرؤى بل ان بإمكانه ايضا شففاء المرضى ، وكان الناس يحضرون له مرضاهم ليمسهم ، وأعلن أن الطعام والنبذ الذي يوضع أمام أتباعه لاينقص ابدا ، بل بالأحرى يزداد بينما يؤكل ويشرب ووعده بأنه عندما يصل الصليبيون الى البحر فان الماء سيرتد أمامهم وأنهم سييسرون من غير بلل الى الأرض المقدسة ، وبشأن قوة قدراته المعجزة ادعى لنفسه الحق في منح الغفران من كل انواع الذنوب ، واذا رغب رجل وامرأة من اتباعه في الزواج فانه كان يقوم بالمراسم ، واذا رغب في الانفصال فانه كان يطلقهم بالسهولة نفسها ويقال انه قد زوج احد عشر رجلا لامرأة واحدة ، مما يدل على أنه رأى نفسه كمسيح حي يتطلب « حواريين » «ومريم عنراء » (ص ٩٦) وكل من يغامر بمعارضته كان يبطش به من قبل الحراس ، واعتبر قتل كاهن امرا يستحق الثناء بشكل خاص ، ونقلا عن قول يعقوب : يمكن أن يكفر عنه بشربة نبيذ ، ولم يكن مدهشا ان نظر رجال اللاهوت الى انتشار الحركة برعب وقد ذهب جيش يعقوب اولا الى امينز حيث استقبل استقبالاً حماسياً ، ودعوهم بأقدس الرجال ، وأعطى يعقوب انطبعا صالحا حتى انهم رجوه ان يتفضل بأخذ مايشاء من ممتلكاتهم ، وركع بعضهم أمامه ( كما لو كان جسد المسيح ) .

وبعد امينز انشطر الجيش الى مجموعتين سارت الأولى الى روان حيث تمكنت من تشتيت مجمع كان ينعقد هناك برئاسة رئيس الاساقفة ، وتقدمت الأخرى الى باريس وهناك فتن يعقوب الملكة الأم بلانش حتى انها حملته بالهدايا وتركت له الحرية ليفعل مايشاء ، وكان يعقوب في ذلك الحين يرتدي زي اسقف ويعظ في الكنائس ويرش الماء المقدس وعقب طقوس غريبة خاصة به ، وخلال

ذلك كان الرعاة يبدأون في المدينة بمهاجمة رجال اللاهوت وقتلوا العديد منهم بالسيف واغرقوا العديد في السنين واوشك طلاب الجامعة - الذين كانوا بالطبع من رجال اللاهوت وان كانوا من المراتب الصغيرة - أن يذبحوا لو لم يغلق الجسر في الوقت المناسب.

وعندما ترك الرعاة باريس تحركوا في عدد من الفرق ، كل منها تحت قيادة « استاذ » كان يبارك الحشود وهم يمرّون خلال المدن والقرى ، وفي تور هاجم الصليبيون رجال اللاهوت أيضا ولاسيما رهبان الدومينيكان والفرنسيسكان الذين سحبوهم وجلدوهم في الشوارع ، ونهبت كنيسة الدومنيكان ، وهوجم دير الفرنسيسكان واقتحم وأظهر الأزدياء القديم للأسرار المقدسة التي تناولتها الايدي غير الجديرة نفسها : لقد أمسكت الحشود بخبز القربان المقدس وبين الاهانات القوا به الى الشوارع ، وكان كل مايجري يلقي القبول والتأييد من الناس ، وفي أورليانز وقعت مشاهد مماثلة ، وهنا أمر الأسقف بإغلاق البوابات في وجه الحشد القادم ولكن البورجوازيون تعمدوا عدم اطاعته وسمحوا للرعاة بدخول المدينة ووعظ يعقوب الحشود وتم شج رأس أحد العلماء من مدرسة الكاتدرائية كان قد تجرأ على معارضته ببساطة طرحته أرضا ، وهرع الرعاة الى المنازل التي اختبأ فيها الرهبان فعصفوا بها ، وحرقوا الكثير منها الى الأرض ، ويطشوا بكثير من البورجوازيين رجال اللاهوت بما فيهم اساتذة الجامعة او اغرقوهم في اللوار .

وأكره باقي رجال اللاهوت على الخروج من المدينة ، وعندما غادر الرعاة المدينة كان الأسقف ساخطا محذقا من الاستقبال الذي اضفي عليهم ، ووضع أورليانز تحت الحرمان ، وفي الواقع كان رأي المعاصرين أن الرعاة كانوا مدينين الى حد بعيد بهيبتهم لعاداتهم في قتل ونهب الكهنة ، وعندما كان أحد رجال اللاهوت يحتج او يقاوم لم يكن يلقي دعما من الناس ، ومن المفهوم ان بعض رجال اللاهوت وهم يرقبون نشاطات الرعاة كانوا يشعرون بأن الكنيسة لم تكن ابدا عرضة لخطر أكبر من ذلك ، وفي بورغ بدا قدر

الرعاة يتغير ، وهنا ايضا عصى البرجوازيون رئيس اساقفتهم وسمحوا للحدشود بقدر ما اتسعت لهم المدينة ، وعسكر الباقي خارجها ووعظ يعقوب هذه المرة ضد اليهود وارسل رجاله لتدمير الكتابات المقدسة ، ونهب الصليبيون المنازل ايضا في كل أنحاء المدينة ، واخذوا الذهب والفضة اينما وجدوهما واغتصبوا كل امرأة امكنهم ان يضعوا ايديهم عليها ، واذا كانوا لم يضايقوا رجال اللاهوت فان ذلك كان لانهم اختبأوا ، ولكن في ذلك الوقت كانت الملكة الام قد ادركت نوع هذه الحركة واعتبرت خارجا على القانون كل من شارك فيها ، وعندما بلغت هذه الأنباء بورغ فر العديد من الرعاة واخيرا وبينما كان يعقوب يرعد ويبرق ضد انحلال رجال اللاهوت ويدعو اهل المدينة للانقلاب ضدهم تجرا واحد من بين الحدشود على معارضته ، واندفع يعقوب نحو الرجل بسيف وقتله ، ولكن هذا كان كثيرا بالنسبة للاهالي الذين حملوا بدورهم السلاح وطاردوا الزوار الجامحين الى خارج المدينة .

وجاء الآن دور الرعاة في معاناة العنف ولوحق يعقوب من قبل الخيالة البرجوازيين ومزق اربا ، واسر العديد من اتباعه من قبل الرجال الرسميين الملاكيين في بورغ وشنقوا ، وشقت الفرق الناجية طريقها الى مرسيليا والى ايغ مورت حيث كانوا يأملون في ركوب السفن الى الأرض المقدسة ، ولكن كلتا المدينتين تلقت تحذيرا من بورغ واعتقل الرعاة وشنقوا ووصلت فرقة أخيرة الى بورديو ولكن لتلتقي هناك مع قوات انكليزية تحت قيادة حاكم غاسكوني سيمون دي مونتفورت حيث تشتت ، واثناء محاولة قائدتها الصعود الى إحدى السفن المبحرة نحو الشرق عرف من قبل بعض البحارة وأغرق وفر احد معاونيه الى انكلترا ، وعندما نزل في شورهام جمع أتباعا من بضع مئات من الفلاحين والرعاة ، وعندما بلغت هذه الأحداث الملك هنري الثامن كان متنبها بدرجة كافية لاصدار تعليمات لقمع الحركة الى قادة الشرطة في كل أنحاء المملكة ، وسرعان ماتحلت الحركة كلها ، وحتى الحواري في شورهام مزق اربا من قبل أتباعه ، وكانت الشائعات قد حملت كل شيء الى كل

جهة ، فقبل ان الحركة كانت مؤامرة من السلطان الذي قيل انه دفع ليعقوب ليجلب له المسيحيين من الرجال والشبان كعبيد ، وقيل ان يعقوب والقادة الآخرين كانوا من المسلمين الذين كسبوا هيمنة على المسيحيين بوسائل السحر الأسود ( ص ٩٨ ) .

ولكن كان هناك ايضا انه في الوقت الذي تم فيه قمع حركة الرعاة ، كانت قد توسعت فقط في الجزء الاول من برنامجها ، فقد قال الناس قصد قادة الرعاة أن يذبخوا أولا الكهنة والرهبان ، ثم الفرسان والنبلاء ، وعندما تسقط كل السلطات تنتشر تعاليمهم في كل أرجاء العالم .

### صليبية الفقراء الأخيرة

لم تصبح الحركات المسانحة للجماهير أكثر استقلالاً فقط بل أصبحت أكثر صراحة في عدائها للأغنياء ونوي المزاي ، وفي هذا عكست تغييرا حقيقيا في الاحساس الشعبي ، ولم تكن الخصومة بين الاغنياء والفقراء شدينا جديدا ، وحتى تحت نظام الوحدات الريفية الاقليمية كان بإمكان الفلاحين الانقلاب ضد ساداتهم اذا كان حكمهم مستبدا أو نزويا أو متعارضا مع عادات الضيعة ، ولم تكن الثورات المحلية غير معروفة بأي حال ، ومع ذلك كان فقط عندما تمزق نظام الوحدات الريفية بسبب تطور الاقتصاد التجاري والصناعي ان الطبقات العليا من العامة أصبحت هدفا لتيار ثابت من النقد الدال على الاستياء .

وكان كثير من العداة موجهها ضد التجار الراسماليين في المدن ، وكثيرا ماكان هؤلاء اغنياء جدا ، فأربعون رأسماليا ربما كانوا يملكون نصف الثروة في مدينة اضافة الى معظم الأراضي التي بنيت عليها ، وصحيح انه في المراحل الاولى في نمو المدينة قدم مثل هؤلاء الناس خدمات عامة عظيمة وفي بعض المدن - البندقية مثلا - استمروا على ذلك خلال العصور الوسطى ، ولكن في مدن كثيرة في

البلاد المنخفضة ووادي الراين أصبحوا بسرعة يشكلون قلة حاكمة أنانية كانت تهتم فقط بحماية مصالحها الخاصة ، و كسلطة بلدية وحيدة كان هؤلاء الرأسماليون قادرين الى حد بعيد على تحديد الأجور وساعات العمل في الصناعة بما في ذلك الصناعات التي يحصلون منها على ارباحهم ، وفوق كل شي لم تكن هناك رابطة تقليدية اجتماعية تقدسها العادة المغرقة في القدم ، لتوحيد الرأسماليين الكبار حتى مع الحرفيين الرئيسيين أو معلمي الحرف الذين عملوا لديهم بصورة دائمة تقريبا ، اذا تجاوزنا عن ذكر العمال العاديين والعاطلين ، ولم يكن هناك مفر من انه في المناطق المتقدمة بدرجة عالية ، حيث عاشت الاقلية الغنية في تقارب وثيق مع السكان ، وحيث وجد عمال غير مستقرين يبالغ في الاستغناء عنهم و احيانا يرهقون بالعمل وهم دائما في فقر يائس ، من ان يشهد هؤلاء تنامي الكراهية الطبقية ذات العنف البالغ .

وكانت النبالة القديمة مكروهة مثلما تمتت كراهية الارستقراطيين الرومان الذين كانوا يرتبطون معهم في الواقع بالزواج ، ( ص ٩٩ ) .

والعمل التقليدي للنبلاء كحماة للفلاحين غير المسلحين اصبح يرى اقل ضرورة مع توقف الغزوات الكبيرة ومع تقييد الأعمال الحربية الخاصة بشكل تدريجي بوساطة السلطة الملكية ، علاوة على ذلك تحلل نظام الوحدات الريفية في المناطق التسالية الاستقرار بسرعة ، والمعايير المعيشية التي كانت تبدو مناسبة حتى بالنسبة لملكي الأراضي الكبار في القرون الأولى بدت اقل وفاء بالحاجة الآن ، وكانوا يريدون عادة العيش في المدن ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك بوساطة الدخل الآتي من الخدمات والقروض النوعية التي كثيرا ما كانت ثابتة منذ قرون قديمة ، وكان عليهم بدلا من ذلك الحصول على المال ويمكنهم فقط الحصول عليه بالسماح لعبيدهم اولا بشراء حرياتهم ، و ثم دفع ايجار نقدي لممتلكاتهم ، وكان الفلاحون كثيرا ما يستفيدون ماديا بقدر كبير ، من التغيير ، لكن موقفهم كان

يتحدد بالأحرى بتلقف رابطة ، مع أنهم كثيرا ما كانوا يجدونها عبثا وظالما الا انها مع ذلك كانت تنطوي على صفة ابوية معينة ولكن مع اختلاف القنانة كانت المصالح المادية تميل لأن تصبح المعيار الوحيد الذي ينظم معاملات مالك الأرض مع فلاحيه ، وكان هناك عدد كبير من الأفراد من جلب عليهم انهيار نظام الوحدات الريفية كوارث تامة ، وعندما - كما حدث كثيرا - اصبح مربحا للمالكي الاراضي خفض عدد مستأجريهم كانوا يطردونهم بأي زريعة يجدونها ، واصبح العديد من الفلاحين الذين كانوا عاجزين عن احكام قبضتهم على الأرض من البروليتاريا الريفيين ، وفي الوقت نفسه افلس عدد كبير من مالكي الأرض في محاولتهم الاحتفاظ بمسستويات من المعيشة تفوق امكانياتهم فغرقوا في صفوف المطرودين .

وفي هذا العالم الجديد عندما ازدهر الرخاء الذي لم يحلم به جنبا الى جنب ليس فقط مع الفقر الكبير بل ايضا مع عدم الأمن الكبير غير المعتاد ، كانت احتياجات الفقراء عالية ومتوالية ، وهي محفوظة في وثائق من أنواع مختلفة من ذلك في الأمثال التي الفها الفقراء انفسهم : « الرجل الفقير يعمل دائما ، يقلق ويعمل ويبكي ولا يضحك من قلبه ابدا ، في حين يضحك الرجل الغني ويغني ... »

وفي العباب الخوارق التي ربما كانت الوسيلة الرئيسية للتعبير الشعبي عن النفس : « ... يجب ان يكون لكل انسان من الممتلكات بقدر ما لغيره ، ليس لدينا شي ندعوه ملكنا الخاص . ان السادة الكبار لديهم كل الممتلكات والناس الفقراء ليس لديهم شيء سوى المعاناة والمحن والحظ العاثر .. »

وايضا في المقطوعات الهجائية المؤثرة التي تقرا على نطاق واسع : «الحكام ورؤساء الكنائس والشمامسة ورؤساء المدن يعيش الكل تقريبا على السرقة .... الكل يعيش على حساب الفقراء هم جميعا يريدون ان يسلبوهم وهم ينتفون شـعـرهم ( ص ١٠٠ ) وهم احياء القوي يسرق الضعيف...» او

ايضا : « اريد ان اخنق الذبلاء ورجال اللاهوت ان اخنق كل واحد منهم... يصنع الرجال الصالحون خبز الحنطة لكنهم لن يمسفوه ابدا كلا ان كل ما يحصلون عليه هو نخالة القمح ، ومن النبيذ الجيد لا يحصلون على شيء سوى التفل ، ومن القماش الجيد لاشي سوى النفاية ، ان كل شيء طيب ، وجيد يذهب الى الذبلاء والكهنة ورجال اللاهوت ... »

وفي المناسبات كان هذا الاستياء والغيط الكذيب الكامن يعطى مكانه لمساواة قتالية وفي وقت يعود في قدمة الى ١١٨٠ تحرك نجار في وسط فرنسا - وكالمعتاد برؤيا للعدراء - ليؤسس جمعية الاخفاء التي ستطهر الأرض من وباء جيش المرتزقة المخل الذي تحول الى جماعة منظمة. وفي البداية كان « صليبيو السلام » كما دعوا انفسهم ، جمعية ورعة ، يمكن مقارنتها بجمعيات بناة الكنيسة تضم اناسا من كل الطبقات ، وكانوا مجازين من الاساقفة ، تعهدوا بعدم الشرب او المغامرة او السباب . ولكن في الوقت الذي تغلبوا فيه على الفرق المنظمة ، تحول الكابوتياتي الذين سموا كذلك بسبب لباسهم الموحد ذو القلنسوة البيضاء الى حركة ثورية من فقراء الناس اعلنت المساواة بين الناس جميعا ، واصرت على ان الكل على حد سواء مخلوقين بالحرية التي ورثوها عن آدم وحواء ، وفي النهاية اصبح الكابوتياتي عنيفين وبادوا بقتل الذبلاء حتى تم قمعهم بالقوة المسلحة .

ومع ان الراهب الذي وصف هذه الأحداث ربما يكون قد صرخ من الرعب ومن الجنون المسعور للكابوتياتي ، كان المنادون بالمساواة من قبل هؤلاء دوما سريعين بالاستشهاد بتعاليم الكنيسة نفسها في دفاعهم ، لأنه مهما كانت ممارساتهم ذنوبية ، لم تتوقف الكنيسة عن تمجيد الفقر كواحد من القيم العالية واحدى الوسائل الرئيسية لبلوغ القداسة . وبالنسبة للرجال المقدمين المحترفين ، كان يفترض أن فقر الرهبان إلزامي مثل العفة والطاعة وقبل القديس فرانسيس بقرن أمكن لباحث ديني مثل القديس

نوربرت ان يختار ان يهيم في العالم في اسمال بالية ، وبالتأكيد إن مثل هذا التمجيد للفقر يجب أن يتضمن إدانة للغنى ؛ وقد أنكر علماء اللاهوت بالطبع قانونية هذا الاستنتاج وأعاد القديس توماس تأكيد العقيدة التي وضعها الآباء : « عين الناس من قبل الله لأحوال مختلفة في الحياة ، وإن الرجل الغني ، مع أنه يتوجب عليه في الواقع أن يعطي الصدقات بسخاء ، يتوجب عليه أيضا أن يحتفظ بما يكفي ليتمكن نفسه وعائلته من العيش بطريقة تتواءم ووضعهم » ولكن هذا لم يمنع الحشود الفقيرة من النظر الى الاغنياء على أنهم يستحقون اللعن ومقبتون الى أقصى حد ، أو لم يقل المسيح نفسه للرجل الغني الشاب : « بع ما تملك ووزعه على الفقراء ، ولسوف يكون لك كنز في السماء... لأنه أسهل على الجمل أن يدخل في سم الخياط من أن يدخل رجل غني في مملكة الرب »؟

الم يتحدث عن دايز الرجل « الذي كان يلبس القرمز والكتان الناعم ويزداد ترفا كل يوم والذي للأسبب نفسه طرح في نار جهنم ، في حين يرقد الشحاذ لازاريس في هدوء في صدر الأب ابراهيم »؟

وحالما أسقط الرجل العلماني الغني دوره الأبوي أصبح موضوعا للاسقاطات نفسها مثل رجال اللاهوت واليهودي ، أي أنه أصبح يرى كأب شرير وابن شرير واكتسب في الوقت نفسه صفة شيطانية ، وهناك مواعظ تصور الأغنياء على أنهم أبناء غير مطيعين للمسيح ، أبناء قساة القلب ستلقى لا مبالاتهم بمعاناة أبيهم بالتأكيد عقابا اليما ، وفي النحت الروماني الدقيق الذي يزين مدخل كنيسة - الرهبان للقديس بيير في مواساتك ، مثلا ، صور الرجل الثري كأب مهمل شرير ، وهنا صورت قصة دايفز ولازاريس كلها بانفعال شديد ، ومن « مشهد المأدبة حيث نبذ لازاريس من قبل البطرك الشرير دايفز نزولا الى النقطة التي يبتهج فيها لازاريس بعناية ابراهيم الابوية في حين وزن دايفز بكيس ماله ، وعذب من قبل الشياطين(صورة رقم ٥ ) ولكن المعنى العاطفي العميق الذي

كان لهذه القصة بالنسبة للحشود انتقل بحيوية أكثر بالصور التي في الزاوية اليمنى السفلى ، فهذه الصور ترمز الى الانفعالات الرئيسية لدى دايفز ، أفاريتيا ( الجشع ) ولوكسوريا ( المتعة ) ، وتلغفه للكسب للمسررات الدنيوية ، واللغة الرمزية هي لغة الايمان بالشياطين في العصور الوسطى ، ويرمز الى التمزق للكسب بشيطان نكر ، في حين رمز لحب المتعة بالمرأة والثعابين - صورة أصلية كانت تجسيدا بصريا للرغبة الجسدية والشيطان الأرضي - ممن اقام في الواقع في ذلك العالم المظلم حيث اقام إبليس ووحش سفر الرؤيا والأفاعي المرافقة لهما ، والعقارب والضفادع .

علاوة على ذلك ففي حواشٍ وشروحٍ لا حصر لها على سفر الرؤيا صور أفاريتيا ولوكسوريا كرموز لخدم المسيح الدجال ، وهكذا نجد بالفعل من وجهة نظر الارثوذكس ، ان دايفز كما صور في مويساك ، هو واحد فقط أبعد عن اليهودي الشيطاني ورجال اللاهوت الشيطاني ، ولكن إذا أمكن للكديسة في محاولاتها ضمان تحالف الحشود الجديدة أن تتحدث بلغة كهذه ، فما الذي كانته لغة أولئك المهرطقين الذي نشروا تعاليمهم بين النساكين في ورشهم وأكواخهم ، أولئك الكهنة المرتدون الذين وجدهم القديس برنارد وقد أثاروا رعبه جالسين وهم ملتحين ، وغير حليقيين بجوار الأنوال الى جانب النساكين من الذكور والاناث ؟ فالى هؤلاء الناس كان دايفز ينتمي ، أي ببساطة الى جيش المسيح الدجال . وفي أذهان المتعصبين من المؤمنين بسفر الرؤيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كان الغني من العلمانيين يمر بالفعل في حالة من التحول سيتحوله مع مرور الزمان ( ص ١٠٢ ) الى رأسمالي في دعاية القرن العشرين : « إنه الكائن الشيطاني جقا في تخريبه ، وقسوته ، وشهوانيته القوية ، وقدرته على الخداع وفوق كل شيء قوته الكلية تقريبا .

إنه في هذا الاطار يمكن رؤية آخر الحملات الصليبية الشعبية كتجارب أولية لنمط من أنماط الألفية التي كانت جديدة على أوربا

العصور الوسطى ، والتي كانت ترمي ولو بشكل مشوش الى القضاء على الاقوياء ، ورفع الفقراء ، ومع الربع الاول من القرن الرابع عشر كان الحماس الصليبي اقوى من اي وقت في احتكاره للفقراء ، لقد وصلت مملكة القدس الى نهايتها وأخلت سورية واستبدلت البابوية الهائلة الصوفية لروما بأمن افزيون وكانت السلطة السياسية في كل بلد تنتقل الى البيروقراطيين متصلبي الرؤوس - وكانت الجماهير غير المستقرة بين السموم والراين فقط ما تزال تضطرم بالتخيلات الأخروية التي كانوا ينقلونها الآن ممزوجة بوحشية مريرة ، ولم يكن مطلوباً سوى القليل جداً لاقلاع هؤلاء الناس في محاولة غير واقعية بالمرّة لتحويل تخيلاتهم الى حقائق ، ففي ١٣٠٩ أرسل البابا كليمنت الخامس حملة من الفرسان الاسبتارية لغزو رودس لتكون حصناً ضد الترك ورات السنة نفسها مجاعة بالغة الخطورة في بيكاردي والأراضي المنخفضة وعلى طول القسم الأدنى من الراين ، وكان الطرفان معاكفيين تماماً لاثارة حملة صليبية شعبية أخرى في المنطقة نفسها ، ومرة أخرى ظهرت الأرتال المسلحة ، تتألف من الحرفيين الفقراء البائسين ، والعمال مع مزيج اضافي من النبلاء الذين بددوا ثرواتهم (المرء يتذكر العديد من مالكي الأراضي المفلسين ) لقد كان الناس يتسولون وينهبون في طريقهم عبر البلاد ، ويقتلون اليهود ولكنهم كانوا أيضاً يعصفون بالحصون التي أوى فيها النبلاء هذه الموارد القيمة للدخل ، وفي النهاية هاجموا حصن دوق أوف برابانت وهو معارض صارم لكل الثورات الشعبية وكان قد هزم قبل ذلك بثلاث سنوات فقط جيشاً من العصاة المتمردين من صانعي الثياب ، ويقال انه دفن قاتله أحياء ، وقاد الدوق على الفور جيشاً ضد الصليبيين وطردهم بخسائر كبيرة ولكن خلال بضعة سنوات كانت حشود أخرى تتجمع مرة أخرى.

وكان هذا بالفعل زمن الأسي الكبير والشعور غير السوي بالأهمية ، وبينما أدى التدني الشامل في إنتاج المحاصيل في ١٣١٥ بالفقراء الى أكل لحوم البشر ، كانت مواكب طويلة من التسائدين

العراة تبكي لله طالبة الرحمة ، ورفرفت الآمال الألفية عالنيا ، وفي وسط المجاعة انتشرت نبوءة تبشر بأن الذين طردهم الجوع ، من الفقراء سيقومون في تلك السنة ذاتها بثورة مسلحة ضد الأغنياء والأقوياء ويدمرون الكنيسة ، ويطيحون بالملكية الكبيرة ، وبعد كثير من سفك الدماء سيبزغ فجر عصر جديد يتوحد فيه كل الناس تحت صليب واحد ماجد مرتفع ، وليس مدهشاً أن اقتصرح في ١٣٢٠ فيليب الخامس ملك فرنسا بفتور حملة ( ص ١٠٣ ) أخرى أيضاً إلى الأراضي المقدسة ، وقد أخذت الفكرة على الفور من قبل الحشود البائسة ، مع أنها كانت غير عملية بالمرّة ونبذت حالاً من قبل البابا ، وهذه المرّة كان راهب مرتد وكاهن مجردهما اللذان بدءا بالوعظ بالحملة الصليبية في شمال فرنسا. وتأثير جيد حتى أن حركة كبيرة قفزت « بشمكل مفاجيء و بدون توقع كدوامه » ولكن هنا أيضاً يبدو أن دوراً كبيراً قد نفذ من قبل متنبىء ادعى أنه عين من قبل الرب كمخلص ، واستمد مؤرخون يهود من مصدر إسباني مفقود قصة صبي راع أعلن أن حمامة قد ظهرت له ، وتحولت إلى صورة العذراء ، وأمرته أن يدعو إلى حملة صليبية ، ووعدت بالنصر لها ، ويذكر هؤلاء المؤرخون أيضاً أن قائداً ادعى أنه موسوم بعلامة الاختيار الإلهي. وهي الصليب بين لوحى الكتف.

وكما في ١٢٥١ كان أول المسـتجيبين هم رعاة الأغنام والخنازير ، وكان بعضهم مجرد أطفال وهكذا أصبحت هذه الحركة أيضاً تعرف بحملة الصليبيين الرعاة ، ولكن مرة أخرى. بينما كانت الأرتال تمر عبر المدن انضمت إليها عناصر أخرى من المتسولين ذكورا وإناثا. والخارجين على القانون وقطاع الطرق ، وأصبح الجيش الناتج بسرعة مشاغبا عنيفا ، وقبل مضي زمن طويل اعتقل عدد كبير من الرعاة وسجنوا ، ولكن البقية كانوا مدعومين جماهيرياً وبحماس ، وكانوا يعصفون بالسجن ويحررون رفاقهم ، وعندما وصلوا إلى باريس أرهبت هذه الحشود المدينة ، واقتحموا القصور ، وانقضوا على الكنائس ، وفي النهاية وبفعل شائعة أن قوات مسلحة قد استدعت للعمل ضدهم ، شكّلوا

أنفسهم في وضع قتالي في حقول القديس جرمان دي بريه ، وعندما لم يتحقق وجود قوة لمعارضتهم تركوا العاصمة وساروا جنوبا حتى دخلوا الأراضي الانكليزية في الجنوب الغربي وكان اليهود قد طردوا من المملكة الفرنسية في ١٣٠٦ ، ولكنهم كانوا ما يزالون موجودين هنا ، وبينما كان الرعاة يزحفون كانوا يقتلون اليهود وينهبون ممتلكاتهم وأرسل الملك الفرنسي أوامره بحماية اليهود ، ولكن الشعب اقتناعا منه أن المذبحة عمل مقدس ، فعل كل شيء لمساعدة الصليبيين وعندما اعتقل الحاكم والرسميون المدنيون في طولوز عددا كبيرا من الرعاة عصف أهل المدينة بالسجن ، وأعقب ذلك مذبحة كبيرة لليهود وفي البي أقفل الحكام البوابات ، ولكن الصليبيين اقتحموها وهم يصيحون بأنهم جاءوا لقتل اليهود ، وحيثهم الجماهير بحماس وحشي ، وفي مدن أخرى انضم أصحاب السلطة أنفسهم الى أهالي المدن والى الصليبيين في بوردو ، وفي كل أنحاء جنوب غرب فرنسا من بوردو في الغرب الى البي في الشرق ، قتل كل يهودي تقريبا (ص ١٠٤) .

وتدرجيا بدأ الرعاة يحولون اهتمامهم الى رجال اللاهوت ، وكرعاة للرب بدوا في مهاجمة الكهنة على أنهم « رعاة زائفون سرقوا قطعانهم » وقيل أنهم كانوا يخططون لمصادرة كل الممتلكات الخاصة برجال اللاهوت غير الرهباني أو العائدة للأديرة ، وحاول ضابط ملكي ، وكيل الأمير في كاركاسون ، أن يشكل قوة لمقاومتهم ، ولكنه وجد صعوبة كبيرة في ذلك ، إذ رفض الناس العاديون في كل مكان تقديم المساعدة ، وفي مقر إقامة البسايا في أفنيون كان هناك استنفار كبير ، حيث أن الأديرة البابوية كانت تتوقع أن يحمل الصليبيون على المدينة وخشوا من الذنائب ، وفي النهاية حرم البابا جون الثامن والعشرين الرعاة ودعا وكيل أمير بوكير ليباشر القتال ضدهم ، وثبتت فعالية هذه الإجراءات ، ومنع الناس تحت طائلة الموت ، أن يقدموا الطعام لمن يريد أن يكون صليبيا ، وقتل العديد في المعركة في نقاط مختلفة بين طولوز ونربونة ، أو أسروا وعلقوا في الأشجار بالعشرين والثلاثين ، واستمرت

عمليات الملاحقة والاعدام نحو ثلاثة شهور ، وتمزق الناجون الى جماعات صغيرة وعبروا البيرينيه لقتل مزيد من اليهود الامر الذي فعلوه الى ان قاد ابن ملك أراغون قوة ضدهم وشتمتهم ، وأكثر من أي حملة صليبية سألقة كان الشعور أن هذه الحملة استمرت تهدد البنية القاسمة للمجتمع ، فلقد نشر الرعاة في ١٣٢٠ الرعب في قلوب الأغنياء جميعا مع المتمتعين بالمزايا.

وبعد هذه النقطة يصبح من الصعب بدرجة متزايدة تعقب العملية ، وفي تلك المنطقة الشمالية بين السوم والراين فيما يتعلق بالأسطورة الاجتماعية التي كانت بصورة أو بأخرى تثير خيال الجماهير لأكثر من قرنين إن الحرب بين الكبير والصغير التي ندر أن توقفت في البلاد المنخفضة منذ أيام برتراندراري ، أصبحت الآن أكثر عنفا وقسوة ، ففي ١٣٢٥ رفض فلاحو السواحل في فلاندرز بدعم من عمال النسيج في بروغ دفع العشور والمكوس ، وحملوا السلاح ضد ملاك الأراضي من رجال الأكليروس والعمامة ، وكانت النتيجة حربا أهلية ضارية دامت حتى ١٣٢٨ ، عندما تدخل ملك فرنسا وهزم الثوار في مونت كاسل.ومن ١٣٢٠ الى ١٣٨٠ ثار النساجون في المراكز الكبيرة الثلاثة لصناعة القماش : غنت ، وبروغ ، وبيرس مرات ومرات في عمليات تمرد دموية انتهت بقمع دموي ، وأخيرا في ١٣٧٩ استولى النساجون في غنت على السلطة ومن مدينتهم نجحوا في الهيمنة على كل فلاندرز وفي الاطاحة بحكم الكونت الفرنسي ، وخلال هاتين السنتين نفسها ( ١٣٨١ - ١٣٨٢ ) كان الشمال الفرنسي الباريسي : مدن بيكاردي ونورماندي ، وكل ماوى قديم للرعاة - يشهد سلسلة من الثورات الشعبية التي أثارها الضرائب الباهظة ، وكان الهدف الأول لهؤلاء الناس دائما مكاتب ضامني الضرائب ( ص ١٠٥ ) حيث دمروا الملفات ، ونهبوا الخزائن وقتلوا ضامني الضرائب ، وكانت المرحلة التالية ، حي اليهود ، حيث قتلوا أيضا ونهبوا كل ما يملكونه ، وفي روان مضوا الى حد انتخاب ملك لهم عرضوه في احتفال بفرحة النصر ، وبأوامره لم يقتلوا فقط جامعي الضرائب بل أيضا بعض

الاهالي من نوي اليسار ، وفي باريس وروان على حد سواء كان العصاة يستلهمون مثال غنت و« ولتعش غنت » كان شعارهم ، وفي كلتا المدينتين سحقت الثورتان من قبل الملك وجيشه من النبلاء عند عودتهم من انتصاراتهم على النساجين الفلمنكيين ولكن الفقراء من المدينة والريف توحدوا في فرق خربت الأراضي .

و على الأغلب كان لهذه الحركات أهداف محدودة و عملية و الذي كانت تريده هذه الثورات هو المزيد من المال ومن الاستقلال ، الم يكن هناك بعد بعض بقايا التيارات السفلية من الحماس الالفي يسري خلالها ؟ وهذا لا يمكن اثباته مع أنه جدير بالملاحظة أن هنري بيرين الذي كان بشكل رئيس مؤهلا للحكم ، اعتقد ذلك ، وماهو مؤكد هو أنه في قمة الحرب الطبقيتي في يبرس في ١٣٧٧ مثلا - لم يشنق عمال النسيج فقط كثوار بل انهم حكموا من قبل محاكم التفتيش واحرقوا كمهرطقين ، ومن جانب اخر ، كان بعض رجال اللاهوت المنشقين يعطون بألفية من نوع ثوري ومساواتي بشمسكل ملحوظ ، وكان واحد من هؤلاء الرجال فرنسيسكاني يدعى جون روكوتباد الذي امضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته في سجون اكليروسية وتحت تهديد مستمر بالحرق بسبب افكاره ، ترك كتاباته التنبؤية ذات الأهمية الكبيرة ، وفي ١٣٥٦ ، عام الهزيمة الفاجعة في بواتيه عندما كانت سرايا حرة تنهب مناطق الريف حيث كان هذا الانفجار الكبير للغضب الفلاحي ، كان الجاكويري قريبا وقد أخرج كتيب « حول هذه المحن »

وهذا الكتاب المشهور ، الذي ترجم الى الانكليزية ، والكتالانية ، والتشيكية يظهر بوضوح شديد كيف أن التقاليد القديمة للأيمان بالأخويات قد تكيفت الآن لتصبح أداة نقل للتطرف .

وقد ميز أسر الملك في بواتيه كما أكد روكوتيلاد - بداية زمن مفتح لفرنسا ، عندما انهارت المملكة بهزيمتها في الحرب ، وكان في

الحقيقية زمن المتعاقب للانصرافية كلها ، إذ أنه بين ١٣٦٠ - ١٣٦٥ ارتفعت ارادة الطبقات الدنيا في مواجهة العليا ، وفي تلك السنوات اتيح للعدالة الشعبية النهوض ومن ثم تمزيق الطغاة والنبلاء وتقطيعهم بسيف صقل حده مرتان .

وجرد كثير من الامراء والنبلاء واصحاب السلطة من هيبتهم وخيلاء ثرائهم ، وكان هناك محن لا تصدق بين النبلاء والعظماء ، ونهب كبار القوم وهم الذين كانوا بسلبهم يفرضون المعاناة على الناس ، وكان الانسان الذي يمكنه ان يجد خادما مخلصا او رفيقا في تلك الايام يعتبر نفسه محظوظا حقا ، ثم ستبدي الفيضانات والابوة القسم الاعظم من البشرية وستمحو الخاطئين المعنين ، وستهد الطريق لتجديد الارض وسيظهر مسيح دجال غربي في روما ، في حين سيذشر آخر شرقي تعاليمه الزائفة في القدس ، وسيجد الاخير اتباعه بين اليهود ، الذين سيضطهدون المسيحيين ، ويدمرون الكنائس والمذابح ، وسيذهب العرب والتتار ايطاليا واسبانيا وهنغاريا وبولونيا واجزاء من المانيا ، وسيجتمع الحكام والشعوب وقد اغضبهم الترف والغنى والخيلاء لدى الاكليروس . ليجردوا الكنيسة من ممتلكاتها ، وسيكون الفقر والذبح عقوبة الاكليروس لاسيما الفرنسيين ، ولكن فيما بعد سترتفع الكنيسة ، ولاسيما الفرنسيين وقد طهرتها المعاناة ، والعيش في الفقر المطلق كالمسيح والرسول كما يعتقد ، الى حياة جديدة وتبسط نفوذها على العالم ، وفي ١٣٦٧ سينتهي زمن المتعاقب ، وسيصبح مصلح عظيم بابا ، وفي الوقت نفسه سينتخب ملك فرنسا خلفا لكل عادة امبراطورا روما وانيا والبابا والملك والامبراطور بعملها معا سيتردان العرب والتتار من اوربا وسيحولان كل المسلمين ، واليهود ، والتتار الى المسيحية ، وسيعيدان الاغريق المنشقين الى كنيسة روما ، وسيمحوان كل هرطقة من على وجه الارض وسيصبح ملك فرنسا فاتح ، وحاكم العالم كله في الغرب والشرق والجنوب ، وستكون مملكته هي الاكثر جدارة بالفخر اكثر من كل ما عرفه العالم ، لانها ستضم كل الممالك

التي ظهرت في اسيا وافريقيا واوروبا على الاطلاق ، ومع ذلك ان حفيد شارلمان هذا الدائم الانتصار ، سيكون ، « الزوج الاشد فقرا ، للكنيسة المسكونية » والملك الاقدس منذ بداية الزمان ، ومع ان كلا من البابا والامبراطور يجب ان يموتا خلال عقد من الزمان ان حكم السلام الذي سميقيمانه سيبقى الف عام ، حتى النهاية .

واستمرت نبوءات « شارلمان الثاني » ، الذي سيصبح الامبراطور وفتاح العالم ، والذي سيقوم بالرحلة الاخيرة الى الضريح المقدس ، في الظهور في فرنسا خلال القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، ولكن تلك النبوءات الاخيرة كان لها النوعية نفسها من الدعاية السياسية التي انتجت لخدمة غايات الاسر الحاكمة ، ولاشيء من نوعية الاساطير الثورية ، وتحول مركز الاثارة في الايمان با لآخرويات في الواقع بعيدا عن فرنسا ، والاراضي المنخفضة ، وكلما ازداد الصراع ضد الغزاة الانكليز ياسا كلما ازداد اخلاص الشعب الفرنسي وصار اكثر تركيزا على الملك الفعلي ، كرمز للارادة الوطنية للنجاة والاستقلال الى ان تمكنت القديسة جان فقط من شغل المكان الذي احتله يوما ما المتنبىء الالفى وفرنسا التي ظهرت من الجهود العظيمة ( ص ١٠٧ ) لاعادة البناء التي تلت حرب المائة عام ، كانت ملكية مركزية الى نقطة الحكم المطلقة ، يتحكم فيها جيش ملكي ، وخدمة مدنية ، وعلاوة على ذلك ارض فقدت فيها المدن كل ذرة من الاستقلال الاداري ، وفي مثل هذه الحالة كان هناك منفذ صغير للحركات الشعبية من اي نوع ، ولكن فوق كل شيء لم يعد تركيز فائض السكان الذي وجد لزمان طويل في المنطقة بين السوم والراين موجودا ، ولم تعد بيكاردي ، وفلاندرز ووهنيوت وبرابانت تشكل المناطق الاكثر كثافة سكانية وتصنيعا في شمال اوربا ، وبنهاية القرن الرابع عشر قلص عدد من العوامل - حرب الطبقات ، الحرب العالمية ، الهجرة ، العجز في الصوف الانكليزي ، المنافسة المتزايدة من المدن الايطالية - صناعة النسيج الى حد الخراب وهبط تعداد السكان بحدة .

وكانت حالة المانيا مختلفة ، فهناك كانت السلطة الملكية في انحدار منذ بداية القرن الثالث عشر ، وكانت الامة تتحلل الى خليط مشوش من الامارات التافهة ، وفي الوقت نفسه مع توسع الصناعة والتجارة وتزايد السكان ، اصبحت المانيا مسرحا لسلسلة جديدة من الحركات المسانحة